بناء الفرد
وأثره في تكوين الأمم
والحضارات

تأليف

سلمان بن فهد العودة

المشرف العام على شبكة الإسلام اليوم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وبعد:

فإن العنصر الذي تنتشر به المبادئ والعقائد، وتقام عليه الأمم والحضارات هو الفرد، فإذا استطاعت أمة من الأمم أن تبني أفرادها بناءً قويًا متكاملاً صحيحًا استطاعت – بإذن الله – أن تحقق لنفسها مستقبلاً زاهرًا، وأن تحقق للدين والعقيدة التي تدين بها نصرًا ونجاحًا كبيرين، وإذا فشلت أمة من الأمم في بناء أفرادها وتكوينهم، أو قَصَرَتْ أفرادها على لون معيّن من نشاطات الحياة؛ فمعنى ذلك أن هذه الأمة عرَّضت نفسها للضعف، أو الفناء والاضمحلال.

وسوف نحاول – إن شاء الله تعالى– إلقاء الضوء على هذا الموضوع من خلال الفصول التالية:

الفصل الأول: أهمية الفرد في بناء الأمم.

الفصل الثاني: خصائص بناء الفرد.

الفصل الثالث والأخير: نماذج من رجالات المدرسة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ لنجعلهم نصب أعيننا، ونحاول جاهدين أن نقتدي بهم، ونقتفي أثرهم، عسى أن يجمعنا الله – تعالى – بهم في جنات النعيم، إنه سبحانه وليّ ذلك والقادر عليه.

* * *

الفصل الأول

أهمية الفرد في بناء الأمم

❑ **دولة الإسلام الأولى :**

إن دولة الإسلام الأولى – التي أقامها الرسول ﷺ وأصحابه – ما قامت إلا على أكتاف الرجال الأشداء الأقوياء، من الرسول ﷺ ثم الصحابة، وخاصة السابقون منهم الذين تولوا أمور الدولة: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين –.

ولو نظرنا إلى أمة ملكت مثل هذا التاريخ؛ فصارت تتغنى بأمجاد الماضي، وأنه كان لها نصر وعز وتمكين، وأن فيها فلانًا وفلانًا، أو أمة ملكت الثروة والمال والجاه – بأي صورة كان–، أو غير ذلك من مظاهر القوة والرقي، لو نظرنا إلى هذه الأمة أو تلك لوجدنا أن سر قوتها وتمكينها كان بتربية الفرد الصالح، الذي يبدي استعداده للتضحية في سبيل هذا المبدأ أو العقيدة التي يدين بها، وفي سبيل هذه الأمة التي ينتمي إليها.

❑ **عناية الأئمة ببناء الفرد:**

وأثر الفرد في بناء الأمم وتكوين الحضارات قضية كانت تشغل بال المصلحين والغيورين على الدين منذ أول عهد الإسلام، فهذا عمر بن الخطاب ﷺ يجلس في مجلس من الصحابة، فيقول لهم: "تمنَّوا"، فقال أحدهم: " أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا فأنفقه في سبيل الله " ثم قال عمر: "تمنوا"، فقال آخر: " أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا أو زبرجدًا أو جوهرًا فأنفقه في سبيل الله وأتصدق" – وهذه أماني خيّرة؛ لكنها لم تكن هي الأمر الذي يشغل بال عمر بن الخطاب ﷺ – ثم قال عمر: "تمنوا"، فقالوا: "ما ندري يا أمير المؤمنين"، قال عمر: "أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان!"[(١)]. إذن عمر ﷺ لا يشغل باله المال، أو الذهب والفضة – التي ينفقها في سبيل الله –، بل يشغل باله أمر أخطر من هذا، ألا وهو: **بناء الفرد؛** لأن الفرد الصالح المؤمن إيمانًا حقيقيًا بعقيدته يستطيع أن يوفر المال والذهب

(١) أخرجه أحمد في (فضائل الصحابة) برقم (١٢٨٠)، وفي إسناده حميد بن زياد الخراط أبو صخر، قال الذهبي: مختلف فيه، وقال ابن حجر: صدوق يهم.

والفضة – ولو من قُوته–، وهذا الذي وقع كما تشهد به أحداث التاريخ.

وهؤلاء الرجال الذين تقوم عليهم الدعوات، وتعتمد عليهم الأمم – بعد الله عز وجل– إذا رزقوا الصبر والثبات على مبادئهم وعقيدتهم ــ حققوا من جليل الأعمال ما يشبه المعجزات، ولكن لابد لهم أن يتمتعوا بالصبر والثبات على مبادئهم؛ لأنهم قوام الحياة، فإذا صلحوا صلحت، لكن إذا انحرفوا أو فسدوا أو مالوا إلى الدنيا أو تأثروا بالمتغيرات من حولهم فسدت الأرض بفسادهم.

روى الإمام ابن المبارك – رحمه الله– في كتاب الزهد: أن عيسى عليه السلام قال للحواريين: "لا تأخذوا ممن تعلِّمون من الأجر إلا مثل الذي أعطيتموني!" وعيسى عليه السلام لم يأخذ من الحواريين أجرًا حين علمهم الإسلام، ﴿وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ فمؤدّى كلامه: حين تعلّمون الناس الإسلام لا تأخذوا منهم أجرًا – ثم قال لهم: "ويا ملح الأرض لا تفسدوا" — وهؤلاء الحواريون، وهم خاصة عيسى وبطانته، ومقربوه الذين قاموا بالدعوة، وبعثهم إلى أنحاء الأرض لينشروا الدين، فهم الفئة القليلة الذين ينهون

عن الفســـاد في الأرض يقول لهم : "ويا ملح الأرض لا تفسدوا؛ فإن كل شيء إذا فسد فإنه يداوى بالملح، وإن الملح إذا فسد فليس له دواء"(١)، وقد نظم هذا المعنى بعض السلف فقال:

يا معشَرَ القراءِ يا مِلحَ البلد ما يُصْلِحُ الملحَ إذا الملحُ فسد

فهؤلاء الرجال الأفراد الأفذاذ – الذين قامت عليهم الأمم والحضارات والدعوات– لم يتم لهم ذلك دون أن يُبْـــنوا بناءً صحيحًا قويًا متكاملاً، ودون أن يتمتعوا بالصبر والثبات على مبادئهم، فلا تجرّهم المغريات والشهوات والمطامع؛ فتثنيهم عن مقاصدهم الحقيقية.

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) برقم (٢٨٣)، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٧)

الفصل الثاني

خصائص بناء الفرد

وهؤلاء الرجال الذين تحتاجهم الدعوة إلى الإسلام لابد أن يكونوا متميزين بخصائص **فطريّة** جُبلوا عليها، تناسب المهمة التي خُلقوا من أجلها، وأخرى **مكتسبة** حصّلوها بتكميل أنفسهم، وأخذوها بالجد والحزم إلى دعوة الإسلام .

وإذا تساءلنا : لِمَ كانت بداية الدعوة في الجزيرة العربية و لم تكن – مثلاً– في أرض فارس أو الروم أو بين النصارى واليهود ؟ لوجدنا أن الله – عز وجل – اختار هذه الجزيرة على علم بخصائصِ أهلها، كما قال – تعالى – : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فالعرب على ما كانوا عليه من الانحراف؛ إلا أن صحراءهم مترامية الأطراف كانت تمنع وصول كثير من المفاسد والمبـــاذل إليهم، ومعيشتهم البدوية الصحراوية كانت تمنع تأثرهم بالمذاهب الفلسفية المنحرفة، التي كانت تسيطر على الناس في ذلك

الوقت، فكانوا يتمتعون بالشجاعة والكرم والقوة والنجدة والصدق؛ ولذلك لما دعاهم الرسول ﷺ إلى قول لا إله إلا الله كان بإمكان بعضهم أن يقولها – وإن لم يلتزموا بما دلت عليه – وإنما على سبيل المجاملة للنبي ﷺ والتقريب بينهم وبينه؛ ولكن لأنهم أناس صرحاء، والغالب على أحوالهم الوضوح والصدق والصراحة، والبعد عن أساليب الالتواء لم يقبلوها، وقالوا صراحة : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، فالعرب كانوا يتمتعون بخصائص فطرية جيدة، بالقياس إلى ما كان يوجد في الأمم الأخرى في عصرهم.

ومع هذه الخصائص الفطرية– التي لابد أن توجد في كل من يدعو إلى الإسلام ويقوم بشأنه– فإن هناك ثلاث قضايا، لابد من التركيز عليها في بناء هؤلاء القوم ودعوتهم حتى تتحول خصائصهم هذه إلى خصائص تخدم الدعوة الإسلامية، وهي:

- **أولاً: توجيه الخصائص الفطرية لخدمة الإسلام:**

فالإسلام لا يهدف إلى إلغاء الخصائص الفطرية الموجودة عند الناس، بل يعمل على توجيهها توجيهًا صحيحًا، والاستفادة منها، فهذا – مثلاً – عمر بن الخطاب ﷺ – الذي كان قويًا شديدًا في الجاهلية، وكان كثير من القرشيين يهابه ويخشاه– من يوم أن أسلم تحولت هذه القوة والشدة الموجودة فيه إلى شجاعة في سبيل الله عز وجل، وإلى جرأة في مواجهة الكفار والمشركين، وهذا ما يذكره لنا المصنِّفون في سيرته ﷺ .

يذكر الإمام محمد بن إسحاق – صاحب (المغازي) – والإمام الحاكم في (المستدرك)، وابن حبان، وغيرهم عن ابن عمرﷺ قال: "لما أسلم أبي (عمرُ) قال: أيّ قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه – قال عبدالله بن عمر: فغدوت أتبع رجاء أنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت – حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد، قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه،

واتبعه عمر، واتبعت أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش–وهم في أنديتهم حول الكعبة–، ألا إن عمر بن الخطاب قد صَبَأ، قال: يقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال: حتى فتر عمر وجلس وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمئة رجل لقد تركناها لكم أوتركتموها لنا"[(١)] – يعني مكة–. فهذه صورة من صور القوة في الحق، هذه القوة كانت موجودة في عمر كصفة مجردة قبل الإسلام، لكنه لما أسلم توظفت وتوجهت هذه القوة في سبيل الخير، واستغـــلت واستثمرت لصالح الإسلام.

---

(١) (السيرة النبوية) لابن إسحاق (١٩٢،١٩٣/٢) وأخرجه من طريقه عبد الرزاق في مصنفه (٣٢٧/٥)، والإمام أحمد في (فضائل الصحابة) (٣٧٢)، والحاكم في (المستدرك) (٤٤٩٣)، وابن حبان (٦٨٧٩)، والضياء في (المختارة) كلهم من طرق عن ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر، وابن إسحاق قال فيه الحافظ ابن حجر في (التقريب) : "صدوق يدلس" .اهـــ وقد صرح هنا بالتحديث فأمن تدليسه، والحديث أقل أحواله أن يكون حسنًا.

فلم يأت الإسلام ليحطم شخصيات الرجال، ويقضي عليها، ويجعل الناس كلهم عبارة عن نسخة واحدة، أو قالب مصبوب.

لقد جاء الإسلام؛ لينقل كل فرد من وضعه الذي يعيش فيه، وخصائصه التي يتميز بها؛ ليكون مسلمًا متسمًا بخصائص معينة، يوجه هذه الخصائص لخدمة الإسلام، لم يأت الإسلام ليجعل الناس كلهم علماء، ولا ليجعل الناس كلهم مجاهدين – يحملون السيف في سبيل الله –، ولا ليجعل الناس كلهم متعبدين – يحيون ليلهم ويصومون نهارهم – ، بل خاطب الإسلام كل فرد بما يناسبه: فالقوي في الجاهلية يبقى قويًا في الإسلام، والإنسان الذي يتميز – بفطرته بخصائص عاطفية ــ يجد في الإسلام ما يُشْبِع هذه العواطف، فيتحول إلى متعبد إلى الله عز وجل غير خارج في تعبده إلى طرائق الصوفية، والإنسان القوي الشجاع يجد في الإسلام ميدان الجهاد، ومن يملك ذهنًا متطلعًا يجد في الإسلام الحث على طلب العلم والتفكر، ولعل في قوله ﷺ : **"كلٌّ ميسَّر لما خُلق له"**[(١)]

(١) أخرجه البخاري (٧١١٢)، مسلم (٢٦٤٩).

إشارة إلى ذلك، مع أن هناك قدرًا لابد من توفره في كل مسلم من التعبد والعلم والجهاد، ولكن الحديث هنا عن التميز.

إن هذه الخصائص تُنَمَّى ولا تُوْأد، وتوجه لخدمة الإسلام، ولكنها في الوقت ذاته تهذب ويكف من غلوائها، فعُمَرُ الذى كان قوياً شديداً في الجاهلية نجده في الإسلام وقد هذّب هذه الصفة فيه إيمانه بالله واليوم الآخر والجنة والنار، فصار يُكْثِر من لوم نفسه وتقريعها، روى الإمام مالك في الموطأ، وعبد الله ابن أحمد بن حنبل في زوائده على كتاب (الزهد) لأبيه عن أنس ابن مالك ﷺ: " أنه خرج مع عمر ﷺ إلى أحد الحيطان – أي البساتين–، فدخل عمر ﷺ إلى هذا الحائط، قال أنس: فسمعته – وبيني وبينه الحائط وهو يخاطب نفسه – يقول: "عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بَـــخٍ بَـــخٍ! والله لتـــتقين الله أو ليعـــذبنّك"[(١)]، يخاطب نفسه، وكأنه يقول لنفسه: كيف وصلت يا ابن الخطاب — يا من كنت ترعى غنم أبيك في الجاهلية، ولا همّ لك في الحياة – إلى أن تكون أمير المؤمنين، ويشار إليك بالبنان؟ ثم

(١) أخرجه مالك في (الموطأ) (١٨٠٠)،وابن أبي عاصم في (الزهد) (١١٥/١) وإسناده صحيح.

يتعجب من هذا الأمر، فيقول: "بخ بخ" – وهي كلمة تقال عند المدح والرضى بالشيء – ثم يثنّي على نفسه باللوم، فيقول: "والله لتتقين الله أو ليعذبنك"، فلن ينفعك بين يدي الله أن تكون أميرًا أو ذا منصب بين المسلمين ما لم تقدم بينك وبينه العمل الصالح. وهكذا أفاد الإسلام من هذه الخاصيّة الموجودة عند عمر –وهي القوة في الحق– مع تهذيبها وتوجيهها توجيهًا صحيحًا، بحيث لا تتعدى حدَّها .

وهناك أنموذج آخر لرجل يتميز بالشجاعة، وهو: خالد ابن الوليد ﷺ ، حيث تتحول شجاعته، بل يتحول تهوُّره في الجاهلية إلى شجاعة وإقدام في سبيل الله، ونصر للإسلام وخذلان لأعداء الدين، روى الإمام أحمد في (فضائل الصحابة)، وأبو يعلى في مسنده، وابن حبان وغيرهم بسند صحيح: أن خالد بن الوليد ﷺ كان يقول: "ما ليلة تُهدى إليّ فيها عروس أنا لها محبٌّ، أو أُبشَّر

فيها بغلام بأحبَّ إليَّ من ليلة شديدة الجليد، بتُّ فيها مع نفر من المهاجرين أُصَبِّح بها العدو"[١] – يعني مجاهدين في سبيل الله عز وجل– فتحول إقدام خالد وشجاعته إلى رغبة حقيقية ملحة دائمة في الجهاد في سبيل الله، ويجد هذا الرجل الباسل المجاهد لذته وطمأنينة نفسه في الخروج في سبيل الله، حتى وهو يجد ألم البرد والخوف –كما يخاف غيره من الناس–، ومع ذلك فهو يحس بأن هذه الليلة ألذ ليلة يقضيها في عمره.

فلابد من استغلال الخصائص النفسية والإفادة منها وتنميتها وتوجيهها التوجيه الصحيح.

---

(١) أخرجه أحمد في (فضائل الصحابة) (١٤٧٦) وهذا لفظه، وأبو يعلى في مسنده (٧١٨٥) وأورده الهيثمي في (المجمع) (٩/٣٥٠) وقال: رجاله رجال الصحيح اهـ وفي إسناد أبي يعلى يحي بن يمان، قال الحافظ في التقريب : "صدوق عابد يخطئ كثيراً وقد تغير" ، وقال ابن عدي : عامة ما يرويه غير محفوظ، وهو في نفسه لا يتعمد الكذب ، إلا أنه يخطئ ويشتبه عليه . (تهذيب التهذيب) (١١/٣٠٧) ، وللأثر طرق أخرى عند ابن أبي شيبة في المصنف (٤/٢١٤)، وابن المبارك في (الجهاد) (١٠٧) ولكنها لا تخلوا من مقال، إلا أن مجموعها يدل على أن لهذا الخبر أصلاً.

- **ثانيًا: التركيز على الجوانب الإيجابية في النفس البشرية:**

نعلم جميعًا أنه لا يكاد يوجد إنسان – مهما يكن شريرًا – إلا ويوجد فيه قدر من الخير، وقد يكون هذا القدر من الخير مغطى بطبقة من الانحراف أو الفساد، بحيث إن الإنسان الذي يقابله أول وهلة يتصور أن هذا الإنسان مجموعة من الرذائل تمشي على الأرض، وأنه لا خير فيه أبدًا، لكن لو وُفق هذا الإنسان بيد حانية، تعمل على إزالة الغبار والانحراف الموجود على الفطرة لتكشّفت الفطرة عن خصائص جيدة محمودة عند هذا الإنسان، وأقرب مثل على ذلك ما جاء من قصة عمر رضي الله عنه، فعن عامر ابن ربيعة أن أمه ليلى قالت: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة جاءني عمر وأنا على بعيري ، أريد أن أتوجه، فقال: "أين يا أم عبد الله ؟"، فقالت: "آذيتمونا في ديننا؛ فنذهب في أرض الله حيث لا نؤذى في عبادة الله"، قال عمر: "صحبكم الله" ثم ذهب، فجاءني زوجي عامر بن ربيعة فأخبرته بما رأيت من رقة عمر، فقال: "ترجين أن

يسلم!" فقلت: "نعم"، فقال: "والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب" [١].

فالفطرة – أحيانًا – تكون مدفونة بطبقة كثيفة من الانحراف، لكن الواقع أن الإنسان لا يخلو من جانب خيـــرٍ، والتربية الإسلامية تهدف إلى مخاطبة هذا الجانب الخيِّر، وتحريكه وإثارته، حتى يكبر ويصبح بارزًا .

ولو نظرنا في سيرة الرسول ﷺ ومعاملته لأصحابه من الشباب وغيرهم ـ لوجدنا ملمحًا قويًا في هذا الجانب،– فعلى سبيل المثال – يروي لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: "بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فَحَاصَ الناس حَيْصَةً [٢] – فكنت فيمن حاص– قال: فلما برزنا قلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في (فضـــائل الصحـــابة) (٣٧١)، والطـــــبراني في (الكبير) (٢٩/٢٥) حديث رقم (٤٧)، والمحاملي في (الأمالي) (٧٥/١).

(2) حاص: حَاصَ الناس حَيْصَةً، أي : جالوا جولة يطلبون الفرار والمحيص، والمهرب والمحيد. وفي حديث أنس : لما كان يومُ أُحدٍ حاص المسلمون حيصة، قالوا : قُتِل محمد (انظر لسان العرب لابن منظور).

بالغضب ؟" "فقلنا: ندخل المدينة، فنثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد"، قال: "فدخلنا فقلنا: "لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كان لنا توبة أقمنا، وإلا ذهبنا" قال: "فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا: "نحن الفرارون" وفي قولهم هذا شعور بحرارة الخطأ واستسلام للجزاء الذي سيقع عليهم ولكن الرسول ﷺ أمسك الجانب الآخر وهو بعث الخير في نفوسهـــم، فلم يوافقهم على ما قالوا، ولم يقرعهم ويوبخـــهم على ما فعلوا ... كـــلا، بل كما قال ابن عمر- : "فأقبل إلينا فقال: "**بـــل أنتـــم العَـــكَّارون**[١]" - أي أنتم الكرارون الذين تغادرون العدو، ثم تكرون عليه مرة أخرى، فأنتم الكرارون أو العكارون، فأثار الرســول هذا الجـــانب الخيـــر في نفوسهم، واستفـــاد من شعورهم بالخطأ أو المعصية، استفادة صحيحة يحتاج إليها الدعاة إلى الله عز وجل ويحتاج إليها المربون في كل مكان - "قال: فدنونا فقبلنا يده ﷺ فقال لنا: " **أنا فئةُ**

(١) العَكْرة: الكرّة (مختار الصحاح ص١٨٨).

المسلمين"[١] رواه أبو داود والترمذي وحسنه ورواه الإمام أحمد أيضًا. فهذا أنموذج لتحريك الخير الكامن في النفوس.

وثمة أُنموذج آخر: يحكيه لنا أنس بن مالك ﷺ، يقول أنس: بلغ صفية أن حفصة قالت: "بنت يهودي" - وهذا الكلام صحيح، فصفية أبوها يهودي وهو حييّ بن أخطب، ومات ولم يُسْلِم. فهذا جانب قد يفسر أنه جانب ضعف قد تحس به صفية خاصة حين تُعيُّرها به إحدى ضَرَّاتِها - "فبكت فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: **"ما يبكيك"**، فقالت: "قالت لي حفصة: إني بنت يهودي" فقال النبي ﷺ: **"إنكِ لابنةُ نبيّ، وإن عمّك لنبي، وإنكِ لتحتَ نبي، ففيم تفخر عليك ؟!** ثم قال: **"اتقي الله يا حفصة"**[٢] وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال لها: " **ألا قلت: فكيف تكونان خيرًا مني؛ وزوجي محمد ﷺ وأبي هارون وعمي**

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٧) وهذا لفظه، وأحمد في المسند (٥٣٨٤،٥٥٩١)، والترمذي (١٧١٦) وقال: لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد، قال عنه أحمد: ليس حديثه بذاك، وقال أبو زرعة: لين يكتب حديثه ولا يحتج به.

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٩٤) واللفظ له، وأحمد (١١٩٨٤)، وابن حبان (٧٢١١).

موسى"[(١)] – وقد كانت صفية من نسل هارون عليه السلام – فالرسول ﷺ حين لمحت حفصة الجانب الذي قد يفسر عند البعض أنه جانب سلبي وهو أن صفية بنت يهودي ــ لمح ﷺ الجانب الآخر، وهو أن صفية من نسل هارون النبي وعمها موسى – عليهما السلام – وزوجها محمد ﷺ؛ فلا يضيرها أن يكون أبوها يهوديًا.

هذا هو الجانب الثاني من الجوانب التي تُعنى بها التربية الإسلامية، وهو: استخراج الخير الكامن في النفوس والتركيز على الجوانب الإيجابية عند الإنسان.

- **ثالثًا : الحرص على تفجير منابع الخير عند الإنسان** :

وذلك بكثرة طرق الخير، من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وطلب العلم والإحسان ... وغير ذلك؛ بحيث إن كل طاقة عند الإنسان تجد لها مصرفًا يصرفها فيه، ويشعر أنه يخدم الإسلام من خلال تصريف هذه الطاقة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٩٢) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

ولاشك أننا نجد أن كثيرًا من الناس – وخاصة الشباب– يتمتعون بطاقات كبيرة جدًا: طاقات جسمية وعقلية ...وغيرها. فحين لا يوجد من يستثمر هذه الطاقات تذبل أو تذهب إلى مجالات ليست محمودة؛ فتضيع في الركض وراء الشهوات وإشباع الغرائز، أو قضاء الأوقات مع الأصدقاء المنحرفين، أو تضيع بأي صورة من الصور. لكن التربية الإسلامية الصحيحة أوجدت المجالات التي يمكن استثمار هذه الطاقات من خلالها، وأضرب لذلك بعض الأمثلة:

يقول الرسول ﷺ : **"من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير"** – والمقصود بزوجين شيئين اثنين من أنواع الخير، كأن ينفق دينارين أو درهمين أو بعيرين ... أو غير ذلك – **"فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريَّان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة"**، قال أبو بكر رضي الله عنه– وهو يستمع هذا الحديث من النبي ﷺ –: "يا رسول الله، ما على أحد

يُـــدعى من أَي من هذه الأبـــواب من ضرورة – يعني من أي باب دعي الإنسان مادام أنه سيدخل الجنة، فليس عليه من بأس إن دخل من باب الصلاة، أو من باب الزكاة، أو من باب الصوم، أو من باب الجهاد، أو من غيرها – "فهل يُـــدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟"، قال ﷺ: **"نـــعم، وأرجو أن تكون منـــهم"**[(١)].

إذن طرق الخير كثيرة، وقد يشعر الإنسان بأنه يستطيع أن يساهم في مجال معين من مجالات الخير، وقد يشعر بأن عنده طاقات كبيرة، يمكن أن يصرفها في العديد من المجالات ؛ ولذلك كان أبو بكر ممن يدعى من أبواب الجنة كلها، كل ملأ من الملائكة عند باب من أبواب الجنة ــ يدعونه، ويقولون له: يا أبا بكر هذا خير – يعني هذا الباب خير فتعال فادخل منه – وهذا فيه مزيد مزية وفضل لأبي بكر ﷺ وهذا ليس بغريب؛ فلقد روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال يومًا لأصحابه: **"من أصبح منكم اليوم صائمًا ؟"** قال أبو بكر: "أنا"، قال: **"فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟"**

(١) أخرجه البخاري (١٧٦٤)، ومسلم (١٠٢٧) من حديث أبي هريرة .

قال أبو بكر ﷺ: "أنا"، قال: **"فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا ؟"** قال أبو بكر ﷺ: "أنا"، قال: **"من عاد منكم اليوم مريضًا ؟"** قال أبو بكر: "أنا"، فقال النبي ﷺ: **"ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنـــــة"**[(١)]، فالنبي ﷺ ســـــأل أصـــحابه أربعـــة أسئـــلة فيها أربعة من طرق الخير والبر قد سلكها أبو بكر ﷺ كلها في يوم واحد فبشره الرسول ﷺ بالجنة.

* * *

(١) أخرجه مسلم (١٠٢٨) من حديث أبي هريرة .

الفصل الثالث

نماذج من رجالات المدرسة المحمدية

هذه الوسائل الثلاثة السابقة وغيرها ــ هي من أهم الوسائل التي استعملها النبي ﷺ في بناء وتكوين أصحابه؛ ولذلك نجد أن أعظم وأمهر وأقوى خرِّيجي المدارس ــ هم: خريجو المدرسة المحمدية، الذين تربوا على يدي محمد ﷺ، ورعاهم على عينه. وقوة المدرسة تعرف من نتائجها، فلننظر الآن لبعض الأمثلة التي تدلنا على مدى قوة، وعظمة التربية النبوية...

وأكتفي بثلاثة نماذج لخريجي هذه المدرسة:

الأنموذج الأَول: مصعب بن عمير رضي الله عنه

روى البخاري ومسلم عن خباب بن الأرت رضي الله عنه أنه قال: "ثم هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، ووجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئًا – منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد فلم نجد شيئًا نكفنه فيه إلا نمرة كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه خرج

رأسه؛ فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه بها ونجعل على رجليه من إذخر– ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها"[١].

فهذا الصحابي المضحِّي الباذل في سبيل الله، والذي كانت حياته في مكة ترفًا ونعيمًا، وكانت أمه تُلبِسُه أحسن الثياب، وتطعمه أحسن الطعام، وكان إذا مشى في الطريق وُجدتْ رائحةٌ طيبة من مسافة بعيدة؛ فلمَّا أسلم تحول هذا النعيم إلى شظف وشدة؛ فهاجر إلى الحبشة، حيث اللأواء والتعب ومشقة الغربة، ثم يعود مرة أخرى فيهاجر إلى المدينة– قبل المهاجرين وقبل الرسول ﷺ يُعلِّم أصحاب الرسول ﷺ الإسلام، ويدعو أهل المدينة إليه أيضًا، وكان يسمى المقرئ، ثم يموت بعد فترة قليلة من قدوم النبي ﷺ دون أن يتمتع طويلاً بصحبته ﷺ بالمدينة بعدما أعز الله الإسلام، ودون أن تينع له ثمرته – كما يعبر خبَّاب رضي الله عنه – وقد كان من قصته: أنْ حَمَلَ الراية يوم أُحُدٍ فقتل وهو يحامي بها، فلما أرادوا تكفينه لم يجدوا له ما يواري جسده كلَّه فستروا بعض جسده وغطوا

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١).

الباقي بالحشائش. هـــذا أنموذج حي عظيم من نماذج خريجي المدرسة النبـــوية.

الأنموذج الثاني: الإمام الحَبْر: عبد الله بن عباس ﵄

وقد كان صغيرًا في حياة الرسول ﷺ، أو ناهز الحلم.

روى الإمام أحمد بسند صحيح في (فضائل الصحابة) عن ابن عباس ﵄ قال: "لما قبض النبي ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلمّ فلنسأل أصحاب النبي عن حديث رسول الله ﷺ فإنه كثير، قال: العجب لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفي الأرض من ترى من أصحاب رسول الله ؟! قال: فترك ذلك، وأقبلت على المسألة وتتبع أصحاب النبي ﷺ، فإن كنت يبلغني الحديث عن رجل سمع الحديث من رسول الله فأجده قائلاً[1]، فأتوسد ردائي على بابه تسفي الرياح في وجهي حتى يخرج، فيقول: ما جاء بك يا ابن عم رسول الله، فأقول: حديث بلغني أنك تحدثه عن النبي ﷺ فأحببت أن أسمعه منك، فيقول: فهلا بعثت إليّ حتى آتيك، فأقول:

(1) قائلاً ، أي نائماً نومة القيلولة .

أنا كنت أحق أن آتيك، فكان ذلك الرجل يمر بي بعد والناس يسألوني، فيقول: أنت كنت أعقل مني"[1].

وبهذه الطريقة حصل ابن عباس ﵁ على علم كثير حتى احتاج الناس إليه حاجة شديدة، وصاروا يتجمعون عليه ويسألونه مع أنه كان يومها صغيرًا.

هذا الرجل الذي سلك هذه الطريقة في التعلم لما تلقّاه من النبي ﷺ من الحث على التعليم، بل والدعاء له بالفقه في الدين في قوله ﷺ: "**اللهم فقّهْهُ في الدين وعلمه التأويل**"[2]، هذا الرجل - وهو شاب في مقتبل عمره - يضارع الشيوخ الكبار؛ فيُحْضِره عـــمر ﵁ في مجلسه مع كبار المهاجرين، ويحكي لنا ابن عباس ذلك، فيقول: " كان عمر يسألني مع أصحاب النبي ﷺ، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتسأله ولنا بنون مثله، فقال له عمر: إنه من

(١) أخرجه أحمد في (فضائل الصحابة) (١٩٢٥) والدارمي (٥٧٠) بسند صحيح

(2) أخرجه أحمد (٢٣٩٧)، والحاكم في (المستدرك) (٦٢٨٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو كما قال وإن كان في سنده عبد الله بن خثيم وفيه كلام يسير لا يضر.

حيث تعلم؛ فسأله عن هذه السورة : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر]، فقلت: إنما هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، وقرأ السورة إلى آخرها، فقال عمر: والله ما أعلم منها إلا ما تعلم"(١) وهـــذا الحديث رواه الترمذي وحسنه.

وهنـــاك رواية أخرى عن ابن عباس أيضًا أنه قال: "كان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يدعوني مع أصحاب محمد ﷺ ويقول لي: لا تتكلم حتى يتكلموا، قال: فدعاهم وسألهم عن ليلة القدر، قال: أرأيتم قول رسول الله ﷺ: **"التمسوها في العشر الأواخر"** أي ليلة ترونها ؟، قال: فقال بعضهم: ليلة إحدى، وقال بعضهم: ليلة ثلاث، وقال آخر: خمس – وأنا ساكت– فقال: مالك لا تتكلم ؟ فقلت: إن أذنت لي يا أمير المؤمنين تكلمت، قال: فقال: ما أرسلت إليك إلا لتتكلم، قال: فقلت: أحدثكم برأيي، قال: عن

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ذلك نسألك، قال: فقلت: السبع؛ رأيت الله ذكر سبع سماوات، ومن الأرضين سبعًا، وخلق الإنسان من سبع، وبرز نبت الأرض من سبع، قال: فقال: هذا أخبرتني ما أعلم، أرأيت ما لا أعلم ؟ ما قولك نبت الأرض من سبع ؟ قال: فقلت: إن الله يقول: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٢٦-٣١] – والأبُّ: نبت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس– قال: فقال عمر: أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام الذي لم تجتمع شئون رأسه بعد ؟ إني – والله – ما أرى القول إلا كما قلتَ، وقال: قد كنت أمرتك أن لا تتكلم حتى يتكلموا؛ وإني آمرك أن تتكلم معهم"(١). وهذه القصة رواها البيهقي، والحاكم وابن خزيمة، بسند صحيح.

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك) (١٥٩٧) وهذا لفظه، وقال ابن خزيمة (٢١٧٢) : هذا حديث صحيح على شرط مســـلم ولم يخرجاه، والبيهقي في (الســـنن الكبرى) (٨٣٤١).

الأنموذج الثالث: صورة من صور الإيثار

وهو أنموذج يعطينا تصورًا لما وصـــل إليه خريجو هذه المدرسة المحمــدية - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام- هو موقف الثلاثة الذين قُتــلوا في معركة اليرموك، فقد روى الإمام عبدالله بن المبارك في كتاب (الزهد) عن أبي جهم بن حذيفة العدوي قال: "انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي ومعي شنة من ماء وإناء، فقلت: إن كان به رمق سقيته من الماء ومسحت به وجهه، فإذا أنا به ينشغ[1] فقلت له: أَسْقِيك، فأشار أن نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمي أن انطلق به إليه، فإذا هو هشام بن العاص - أخو عمرو بن العاص-؛ فأتيته فقلت: أسقيك، فسمع آخر يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق به إليه؛ فجئته فإذا هو

(١) قال في النهاية: النَّشْغ الشَّهيقُ حتى يكاد يبلُغُ به الغَشْيَ، وقال الأصمعي: النشغات عند الموت فوقات خفيّات جدًا.

قد مات، ثم رجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، ثم أتيت ابن عمي فإذا هو قد مات"[1].

صورة رائعة من صور الإيثار! ليس في الرخاء - لأن الذين يؤثــرون في الرخاء كثيــرون - وإنما في حالة الشدة ؛ بل في أشد شدةٍ يمكن أن تَعْرِض للإنسان، وهي حاجته إلى جرعة يبرد بها ما يجد من الحرّ في جوفه، وهو يجودُ بنفسه، ولا عجب أن يصل أتبــاع محمد ﷺ من الصحابة والتابعين إلى هــذا المستوى.

وليس ما ذكرته إلا نماذج فقــط، وإلا فبإمكان كل إنسان أن يقرأ بعض الكتب التي جمعت أخبارهم؛ ليجد منها العجب العجاب.

ومن هذه الكتــب التي جمعت أخبار هؤلاء القوم: (سِيَر أعلام النبلاء) للذهبي، و(حلْية الأولياء) لأبي نُعيم، و(الإصابة) لابن حجر، و(الاستيعاب)، و(أُسْد الغابة) ... وغيرها من الكتب التي تحدثت عن الصحابة أو التابعين، أو من جاء بعدهم من المقتدين بهم.

(١) (الزهد) لابن المبارك (٥٢٥) وأخرجه أيضًا في (الجهاد) (١١٦) وكذا أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٣٤٨٣) .

أسأل الله – تعالى – أن يجمعنا بهم في جنات ونَهَر، في مقعد صدق عند مليك مُقتدر.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

فهرس